كله يمكن أن تُوضع فى نصف كستبان الخياطة ، وتأمل كم يقذف الرجل فى المرة الواحدة من هذا المقدار ؟ إذن : المسألة دقة تكوين وعظمة خالق ، ففى هذه الذرة البسيطة خصائص إنسان كامل ، فهى تحمل : لونه ، وجنسه ، وصفاته .. الخ .

وسبق أن قلنا فى عالم الذر : إن فى كل منا ذرة وجزيئاً حياً من لَدُنْ أبيه آدم عليه السلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ(١) وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وهذه التسوية كانت أولاً للإنسان الأول الذى خلقه الله من الطين ، كما قال سبحانه : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر] وقد مرَّ آدم - عليه السلام - فى هذه التسوية بالمراحل التى ذكرت ، كذلك الأمر فى سلالته يُسوِّيها الخالق - عز وجل - وتمر بمثل هذه المراحل : من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة .. الخ ، ثم تُنفخ فيه الروح .

وإذا كان الإنسان لم يشهد كيفية خَلْقه ، فإن الله تعالى يجعل من المشَاهَد لنا دليلاً على ما غاب عنَّا ، فإنْ كنَّا لم نشهد الخَلْق فقد شاهدنا الموت ، والموت نَقْضٌ للحياة وللخَلْق ، ومعلوم أن نَقْض

---

(١) قال الشيخ أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ٣٢٤) : « المراد بـ (روحه) جبريل ، وإلا فالله منزه عن الروح الذى يقوم به الجسد وتكون به الحياة ، وأضافه إلى نفسه تشريفاً وإشعاراً بأنه خَلْق عجيب مناسب للمقام » .

الشيء يأتي على عكس بنائه ، فإذا أردنا مثلاً هدم عمارة من عدة أدوار فإن آخر الأدوار بناءً هو أول الأدوار هدماً .

كذلك الحال في الموت ، أول شيء فيه خروج الروح ، وهي آخر شيء في الخَلْق ، فإذا خرجت الروح تصلَّب الجسد ، أو كما يقولون (شضّب) ، وهذه المرحلة أشبه بمرحلة الصلصالية ، ثم يُنتن وتتغير رائحته ، كما كان في مرحلة الحمأ[1] المسنون ، ثم يتحلل هذا الجسد ويتبخر ما فيه من مائية ، وتبقى بعض العناصر التي تتحول إلى تراب ليعود إلى أصله الأول .

إذن : خُذْ من رؤيتك للموت دليلاً على صِدْق ربك - عز وجل - فيما أخبرك به من أمر الخَلْق الذي لم تشهده .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. ⑨ ﴾ [السجدة] سبق أن تكلمنا عن هذه الأعضاء ، وقد قرر علماء وظائف الأعضاء مهمة كل عضو وجارحة ، ومتى تبدأ هذه الجارحة في أداء مهمتها ، وأثبتوا أن الأذن هي الجارحة الأولى التي تؤدي مهمتها في الطفل ، بدليل أنك إذا وضعتَ أصبعك أمام عين الطفل بعد ولادته لا (يرمش) ، في حين يفزع إنْ أحدثتَ بجواره صوتاً ؛ ذلك لأنه يسمع بعد ولادته مباشرة ، أما الرؤية فتتأخر من ثلاثة إلى عشرة أيام .

لذلك كانت حاسة السمع هي المصاحبة للإنسان ، ولا تنتهي مهمتها حتى في النوم ، وبها يتم الاستدعاء ، أما العين فلا تعمل أثناء النوم .

---

(١) الحمأ : الطين الأسود ، ومسنون أي : مصبوب في قالب إنساني ، أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

وهذه المسألة أوضحها الحق سبحانه فى قصة أهل الكهف ، فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُنيم أهل الكهف هذه المدة الطويلة ، والكهف فى صحراء بها أصوات الرياح والعواصف والحيوانات المتوحشة ؛ لذلك ضرب الله على آذانهم وعطَّل عندهم هذه الحاسة كما قال سبحانه : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [الكهف]

إذن : الأذن هى أول الأعضاء أداءً لمهمتها ، ثم العين ، ثم باقى الأعضاء ، وآخرها عملاً الأعصاب ، بدليل أن الطفل تصل حرارته مثلاً إلى الأربعين درجة ، ونراه يجرى ويلعب دون أن يشعر بشىء ، لماذا ؟ لأن جهازه العصبى لم ينضج بَعْد ، فلا يشعر بهذه الحرارة .

لذلك نجد دائماً القرآن يُقدِّم السمع على البصر ، ويتقدم البصرَ إلا فى آية واحدة هى قوله تعالى : ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة] لأنها تصور مشهداً من مشاهد القيامة ، وفيه يفاجأ الكفار بأهوال القيامة ، ويأخذهم المنظر قبل أنْ يسمعوا الصوت حين ينادى المنادى .

ومن عجائب الأداء البيانى فى القرآن أن كلمة أسماع يقابلها أبصار ، لكن المذكور هنا ﴿ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٩) ﴾ [السجدة] فالسمع مفرد ، والأبصار جمع ، فلماذا أفرد السمع وجمع البصر ؟

قالوا : لأن الأذن ليس لها غطاء يحجب عنها الأصوات ، كما أن للعين غطاءً يُسْدَل عليها ويمنع عنها المرئيات ، فإذن فهو سمع واحد لى ولك وللجميع ، الكل يسمع صوتاً واحداً ، أما المرئيات فمتعددة ، فما تراه أنت قد لا أراه أنا .

ولم يأت البصر مفرداً - في هذا السياق - إلا في موضع واحد هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ [الإسراء] ذلك لأن الآية تتكلم عن المسئولية ، والمسئولية واحدة ذاتية لا تتعدى ، فلا بُدَّ أنْ يكون واحداً .

ومن المناسب أن يذكر الحق سبحانه السمع والأبصار والأفئدة بعد الحديث عن مسألة الخَلْق ؛ لأن الإنسان يُولَد من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وبهذه الأعضاء والحواس يتعلّم ويكتسب المعلومات والخبرات كما قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

إذن : فهذه الأعضاء ضرورية لوجود الإنسان الخليفة فى الأرض ، وبها يتعايش مع غيره ، ولا بُدَّ له من اكتساب المعلومات ، وإلاَّ فكيف سيتعايش مع بيئته ؟

وقلنا : إن الإنسان لكى يتعلم لا بُدَّ له من استعمال هذه الحواس المدركة ، كل منها فى مناطه ، فاللسان فى الكلام ، والعين فى الرؤية ، والأذن فى السمع ، والأنف فى الشم ، والأنامل فى اللمس .

وقلنا : إن هذه الحواس هى أمهات الحواس المعروفة ، حيث عرفنا فيما بعد حواسَّ أخرى ؛ لذلك احتاط العلماء لهذا التطور ، فأطلقوا على هذه الحواس المعروفة اسم « الحواس الظاهرة » ، وبعد ذلك عرفنا حاسة البَيْن التى نعرف بها رِقَّة القماش وسُمْكه ، وحاسة العضل التى نعرف بها الثقل .

إذن : حينما يُولَد الإنسان يحتاج إلى هذه الحواس ليتعايش بها ويدرك ويتفاعل مع المجتمع الذى يعيش فيه ، ولو أن الإنسان يعيش وحده ما احتاج مثلاً لأنْ يتكلم ، لكنه يعيش بطبيعته مع الجماعة ،

فلا بُدَّ له أن يتكلم ليتفاهم معهم ، وقبل ذلك لا بُدَّ له أنْ يسمع ليتعلم الكلام .

وعرفنا سابقاً أن اللغة وليدة السماع ، فالطفل الذى يُولَد فى بيئة عربية ينطق بالعربية ، والذى يعيش فى بيئة إنجليزية ينطق الإنجليزية وهكذا ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، فإذا لم تسمع الأذن لا ينطق اللسان .

لذلك سبق أن قلنا فى سورة البقرة فى قول الله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ .. (١٨) ﴾ [البقرة] أن البَكَم وهو عدم الكلام نتيجة الصمم ، وهو عدم السماع ، فالسمع ـ إذن ـ هو أول مهمة فى الإنسان ، وهو الذى يعطينى الأرضية الأولى فى حياتى مع المجتمع من حولى .

ومعلوم أن تعلُّم القراءة مثلاً يحتاج إلى معلم أسمع منه النطق ، فهذه ألف ، وهذه باء ، هذه فتحة ، وهذه ضمة .. الخ ، فإذا لم أسمع لا أستطيع النطق الصحيح ، ولا أستطيع الكتابة .

وبالسماع يتم البلاغ عن الله من السماء إلى الأرض ؛ لذلك تقدَّم ذكرُ السمع على ذِكْر البصر .

والحق سبحانه لما تكلَّم عن السمع بهذه الصورة قال : أنا سأُسْمع أسماء الأشياء ، فهذه أرض ، وهذه سماء .. الخ ؛ لذلك حينما نُعلِّم التلميذ نقول له : هذه عين ، وهذه أذن .

وبعد أنْ يتعلم التلميذ من مُعلِّمه القراءة يستطيع بعد ذلك أنْ يقرأ بذاته ، فيحتاج إلى حاسَّة البصر فى مهمة القراءة ، فإذا أتم تعليمه واستطاع أن يصحح قراءته بنفسه ، واختمرت عنده المعلومات التى اكتسبها بسمعه وبصره استطاع أنْ يقرأ أشياء أخرى غير التى قرأها

له معلمه ، واستطاع أن يربى نفسه ويُعلِّمها حتى تتكون عنده خلية علمية يستحدث من خلالها أشياء جديدة ، ربما لا يعرفها معلمه ، وهذه مهمة الفؤاد ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ .. (٩) ﴾ [السجدة]

فالمعانى تتجمع بهذه الحواس ، حتى يصير الإنسان سَوِياً لديه الملكة التى يتعلم بها ، ثم يُعلِّم هو غيره .

واللغة المنطوقة لا تُتعلَّم إلا بالسماع ، فأنا سمعت من أبى ، وأبى سمع من أبيه ، وتستطيع أنْ تسلسل هذه المسألة لتصل إلى آدم عليه السلام أبى البشر جميعاً ، فإنْ قلتَ : فممَّنْ سمع آدم ؟ نقول : سمع الله حينما علَّمه الأسماء كلها : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا(١) ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) ﴾ [البقرة]

وهذا أمر منطقى ؛ لأن اللغة المسموعة بالأذن لا يمكن لأحد اختراعها ، ومع ذلك يوجد مَنْ يعترض على هذه المسألة ، يقول : هذا يعنى أن اللغة توقيفية ، لا دخْلَ لنا فيها . بمعنى : أننا لا نستحدث فيها جديداً .

ونقول : نعم ، اللغة أمر توقيفى ، لكن أعطى اللهُ آدم الأسماء وعلَّمه إياها ، وبهذه الأسماء يستطيع أنْ يتفاهم على وضع غيرها من الأسماء فى المعلومات التى تستجد فى حياته .

---

(١) عن ابن عباس قال : علم الله آدم الأسماء كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وبحر ، وسهل ، وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ١/ ١٢١ وعزاه لابن جرير الطبرى] .

قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٧٣) : « علَّمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس : حتى الفسوة والفسية . يعنى : أدوات الأسماء والأفعال المكبَّر والمصغر » .

وإلا ، فكيف سمَّيْنا (الراديو والتليفزيون .. الخ) وهذه كلها مُستجدات لا بُدَّ لها من أسماء ، والاسم لا يوجد إلا بعد أنْ يوجد مُسمَّاه ، وهذه مهمة المجامع اللغوية التى تقرر هذه الأسماء ، وتوافق على استخدامها ، وقد اصطلح المَجْمع على تسمية الهاتف : مسرة . والتليفزيون : تلفاز .. الخ .

إذن : أتينا بهذه الألفاظ واتفقنا عليها ؛ لأنها تعبر عن المعانى التى نريدها ، وهذه الألفاظ وليدة الأسماء التى تعلمها آدم عليه السلام ، فاللغة بدأت توقيفية ، وانتهت وضعية .

وقوله تعالى بعد هذه النعم : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩) ﴾ [السجدة] دليل على أن هذه النعم تستوجب الشكر ، لكن قليل منَّا مَنْ يشكر ، وكان ينبغى أن نشكر المنعم كلما سمعنا ، وكلما أبصرنا ، وكلما عملتْ عقولنا وتوصلتْ إلى جديد .

لذلك ، كان شكر المؤمن لربه لا ينتهى ، كما أن أعياده وفرحته لا تنتهى ، فنحن مثلاً نفرح يوم عيد الفطر بفطرنا وبأدائنا للعبادة التى فرضها الله علينا ، وفى عيد الأضحى نفرح ؛ لأن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - تحمَّل عنَّا الفداء بولده ، لكى يعفينا جميعاً من أنْ يفدى كل منَّا ، ويتقرب إلى الله بذبح ولده ، وإلا لكانت المسألة شاقة علينا ؛ لذلك نفرح فى عيد الأضحى ، ونذبح الأضاحى ، ونؤدى النُّسُك فى الحج .

وما دام المؤمن ينبغى له أن يفرح بأداء الفرائض وعمل الطاعات ، فلماذا لا نفرح كلما صلَّينا أو صُمْنا أو زكَّيْنا ؟ لماذا لا نفرح عندما نطيع الله بعمل المأمورات ، وترْك المنهيات ؟ لماذا لا نفرح فى الدنيا حتى يأتى يوم الفرح الأكبر ، يوم تتجمع حصيلة هذه الأعمال ، وننال ثوابها الجنة ونعيمها ؟

واقرأ إن شئت قول ربك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ [يونس]

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ (١٠) ﴾

معنى ﴿ ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [السجدة] أي : غِبْنا فيها ، واندثرتْ ذراتنا ، بحيث لا نعرف أين ذهبت ، وإلى أيِّ شيء انتقلت ، إلى حيوان أم إلى نبات ؟ إذا حدث هذا ﴿ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة] يعني : أيخلقنا الله من جديد مرة أخرى ؟

والحق سبحانه يرد عليهم : ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة] بل تفيد الإضراب عن كلامهم السابق ، وتقرير حقيقة أخرى ، هي أنهم لا ينكرون البعث والحشر ، إنما ينكرون لقاء الله ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة] لأن مسألة الحشر مستحيل أنْ ينكروها ؛ لأن الدليل عليها واضح .

كما قال سبحانه : ﴿ أَفَعَيِينَا[1] بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ [ق] والذي خلق من العدم أولاً قادر على الإعادة من موجود ؛ لأن ذراتك وخاماتك موجودة ، فالإعادة أسهل من البَدْء ؛

---

(١) عيَّ عن الأمر يعيا : عجز عن النهوض به . فقوله ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. (١٥) ﴾ [ق] أي : لم نعجز ولم نَعْيَ بالخلق الأول ، وكذلك لن نعجز عن الخلق الثاني يوم القيامة ، وهو برهان على إمكان البعث بعد الموت ، فإن من قدر على الخلق أول مرة يكون قادراً من باب أوْلَى على الخلق مرة ثانية . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم]

إذن : تكذيبهم ليس للبعث فى حَدِّ ذاته ، إنما للقاء الله وللحساب ، لكنهم ينكرون البعث ؛ لأنه يؤدى إلى لقاء الله ، وهم يكرهون لقاء الله ، فينكرون المسألة من بدايتها .

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾

نلحظ هنا أنهم يتكلمون عن البعث ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة] ومعلوم أن البعث إيجاد حياة ، فإذا بالقرآن يُحدِّثهم عن الوفاة ، وهى نَقْضٌ للحياة ، ليُذكِّرهم بهذه الحقيقة .

ومعنى ﴿ يَتَوَفَّاكُم .. (١١) ﴾ [السجدة] من توفيت دَيْناً من المدين . أى : أخذتهُ كاملاً غيرَ منقوص ، والمراد هنا الموت ، والتوفِّى يُنسب مرة إلى الله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (٤٢) ﴾ [الزمر]

ويُنسَب لملك الموت ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١) ﴾ [السجدة] ويُنسب إلى أعوانه من الملائكة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾ [الأنعام]

لأن مسألة الموت أمرها الأعلى بيد الخالق سبحانه ، فهو وحده واهب الحياة ، وهو وحده صاحب الأمر فى نَقْضها وسَلْبها من صاحبها ؛ لذلك حرَّم الله القتل ، وجعل القاتل ملعوناً ؛ لأنه يهدم

بنيان الله ، فإذا قدَّر الله على إنسان الموت أذن لملك الموت فى ذلك ، وهو عزرائيل .

إذن : هذه المسألة لها مراحل ثلاث : التوفِّى من الله يأمر به عزرائيل ، ثم يأمر به عزرائيلُ ملائكته الموكَّلين بهذه المسألة ، ثم ينفذ الملائكةُ هذا الأمر .

وتأمل لفظة ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنعام] أى : أخذتْه كاملاً ، فلم يقُلْ : أعدمتُه مثلاً ؛ لذلك نقول قُبضت روحه أى : ذهبتْ إلى حيث كانت قبل أن تُنفخ فيه ، ذهبت إلى الملأ الأعلى ، ثم تحلَّل الجسد وعاد إلى أصله ، وذاب فى الأرض ، جزئية هنا وجزئية هناك، كما قالوا ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [السجدة]

فالذى يُتوفَّى لم يُعدم ، إنما هو موجود وجوداً كاملاً ، روحه وجسده ، والله قادر على إعادته يوم القيامة ؛ لذلك لم يقُلْ أعدمنا . وهذه المسألة تحلُّ لنا إشكالاً فى قصة سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ فقد قال الله فيه : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَىٰ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران]

فالبعض يقول : إنه عليه السلام تُوفِّى أولاً ، ثم رفعه الله إليه . والصواب أن واو العطف هنا تفيد مطلق الجمع ، فلا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً ، واقرأ إنْ شئتَ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب]

والخطاب هنا للنبى محمد ﷺ ونوح عليه السلام قبله .

فالمعنى هنا أن الله تعالى قدَّم الوفاة على الرفع ، حتى لا يظن أحد أن عيسى - عليه السلام - تبرأ من الوفاة ، فقدَّم الشيء الذى فيه شكٌّ أو جدال ، وما دام قد توفَّاه الله فقد أخذه كاملاً غير منقوص ، وهذا يعني أنه لم يُصلَب ولم يُقتل ، إنما رفعه الله إليه كاملاً .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ .. (١١) ﴾ [السجدة] جاءت ردّاً على قولهم ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة] فالحق الذى قال أنا خلقتُ الإنسان لم يقُلْ وأنا سأعدمه إنما سأتوفاه ، فهو عندى كاملٌ بروحه وبذراته التكوينية ، والذى خلق فى البَدْء قادر على الإعادة ، وجمع الذرات التى تشتتت .

وقوله عن ملك الموت ﴿ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١) ﴾ [السجدة] أى : يرقبكم ولا يغفل عنكم ، يلازمكم ولا ينصرف عنكم ، بحيث لا مهربَ منه ولا فكَاك ، كما قال أهل المعرفة : الموت سهم انطلق إليك فعلاً ، وعمرك بمقدار سفره إليك ، فهو واقع لا محالة . كما قلنا فى المصيبة وأنها ما سُمِّيت مصيبة إلا لأنها ستصيبك لا محالة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾ [السجدة] أى : يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾

تصوِّر لنا هذه الآية مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يوم يُساق

المجرم ذليلاً إلى ما يستحق من العذاب ، كأنْ ترى مجرماً مثلاً تسوقه الشرطة وهو مُكبَّل بالقيود يذوق الإهانة والمذلّة ، فتشفى نفسك حين تراه ينال جزاءه بعد أنْ أتعب الدنيا وأداخ الناس .

وفى هذا المشهد يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ، وهو أول مخاطب ، ثم يصبح خطاباً لأمته : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٢) ﴾ [السجدة] أى : حالة وجودهم أنهم ناكسو رءوسهم . وتقدير جواب الشرط : لرأيتَ أمراً عجيباً يشفى صدرك مما فعلوه بك .

ونلحظ فى هذا الأسلوب دقة الأداء فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ .. (١٢) ﴾ [السجدة] فلم يقل مثلاً : ولو تعلم ؛ لأن إخبار الله كأنه رؤيا العين ، فحين يخبرك الله بأمر ، فاعلم أنه أصدق من عينك حين ترى ؛ لأن عينك قد تخدعك ، أما إخبار الله لك فهو الحق .

ومعنى ﴿ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ .. (١٢) ﴾ [السجدة] النكس هو جَعْل الأعلى أسفل ، والرأس دائماً فى الإنسان أعلى شىء فيه .

وقد وردتْ هذه المادة فى قوله تعالى فى قصة إبراهيم عليه السلام حين حطم الأصنام ، وعلَّق الفأس على كبيرهم : ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) ﴾ [الأنبياء]

فبعد أنْ عادوا إلى رشدهم واتهموا أنفسهم بالظلم انتكسوا وعادوا إلى باطلهم ، فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) ﴾ [الأنبياء]

وورد هذا اللفظ أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) ﴾ [يس]

والمعنى : نرجعه من حال القوة والفتوة إلى حال الضعف والهرم وعدم القدرة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٧٠) ﴾ [النحل]

فبعد القوة يتكيء على عصا ، ثم لا يستطيع السير فيحبو ، أو يُحمل كما يُحمل الطفل الصغير ، هذا هو التنكيس فى الخَلْق ، وحين نتأمله نقول : الحمد لله لو عافانا من هذه الفترة وهذه التنكيسة ، ونعلم أن الموت لُطْف من الله ورحمة بالعباد ، ألاَ ترى أن مَنْ وصل إلى هذه المرحلة يضيق به أهله ، وربما تمنَّوْا وفاته ليستريح وليستريحوا ؟

وتنكيس رءوس المجرمين فيه إشارة إلى أن هذه هى العاقبة فاحذر المخالفة ، فمَنْ تكبر وتغطرس فى الدنيا نُكِّسَتْ رأسه فى الآخرة ، ومَنْ تواضع لله فى الدنيا رُفِعت رأسه ، وهذا معنى الحديث الشريف : « من تواضع لله رفعه »[1] .

وفى تنكيس رءوس المجرمين يوم القيامة معنى آخر ؛ لأن الحق - سبحانه وتعالى - سيفعل فى كل مخالف فى الآخرة من جنس ما فعل فى الدنيا ، وهؤلاء الذين نكَّس الله رءوسهم فى الآخرة فعلوا ذلك فى الدنيا ، واقرأ إن شئتَ قول ربك : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .. (٥) ﴾ [هود]

أى : يطأطئون رءوسهم ؛ لكى لا يواجهوا رسول الله ، فللحق صَوْلة وقوة لا يثبت الباطل أمامها ؛ لذلك نسمع من أصحاب الحق :

(١) أخرج أبو نعيم فى حلية الأولياء (٤٦/٨) من حديث أبى هريرة قال : قال ﷺ : « من تواضع لله رفعه الله » . وكذا (١٢٩/٧) عن عمر بن الخطاب أنه قال : يأيها الناس ، تواضعوا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تواضع لله رفعه الله » .

تعالَ واجهني ، هات عيني في عينك . ولا بُدَّ أنْ يستخزى أهل الباطل ، وأنْ يجبنوا عن المواجهة ؛ لأنها ليست في صالحهم .

وهذا العجز عن المواجهة يدعو الإنسان إلى ارتكاب أفظع الجرائم ، ويصل به إلى القتل ، والقتل لا يدل على القوة ، إنما يدل على عجز وضعف وجُبْن عن المواجهة ، فالقاتل أقرَّ بأنه لا يستطيع أنْ يواجه حياة عدوه فقتله ، ولو كان قوياً لواجه حياته .

ومن العذاب الذى يأتى من جنس ما فعل الإنسان فى الدنيا قول الله تعالى فى الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة]

سبحان الله ، كأنها صورة طبق الأصل مما فعلوه فى الدنيا ، فالواحد منهم يأتيه طالب العطاء فيعبس فى وجهه ، ثم يُعرض عنه ، ويعطيه جنبه ، ثم يعرض عنه ويعطيه ظهره ، ويأتى العذاب بنفس هذا التفصيل . إذن : فعلى العاقل أن يحذر هذه المخالفات ، فمن جنسها يكون العذاب فى الآخرة .

وهؤلاء المجرمون حال تنكيسهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة] هذا كلامهم ، ومع ذلك لم يقل القرآن : قالوا أبصرنا وسمعنا ، فحَذْف الفعل هنا يدل على أن القول ليس سهلاً عليهم ؛ لأنه إقرار بخطئهم الأول وإعلان لذلَّة التوبة .

وقلنا : إن هذه هى الآية الوحيدة التى تقدَّم فيها البصر على السمع ؛ لأن الساعة حين تأتى بأهوالها نرى الهول أولاً ، ثم نسمع ما نراه .

لذلك يقول تعالى مُصوِّراً أثر هذا الهول : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾ [الحج]

وفي معرض حديثنا السابق عن الحواس : السمع والبصر والفؤاد فاتنا أنْ نذكر آية مهمة جاءت على غير هذا الترتيب ، وهى قول الله تعالى : ﴿ خَتَمَ (١) اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ ﴾ [البقرة]

فجاء الفؤاد هنا أولاً ، وجمع الفؤاد مع السمع فى الختم لأنهما اشتركا فيه ، أما البصر فاختص بشيء آخر ، وهو الغشاوة التى تُغطِّى أبصارهم ؛ ذلك لأن الآية السابقة فى السمع والبصر والفؤاد كانت عطاءً من الله ، فبدأ بالسمع ، ثم البصر ، ثم ترقى فى العطاء إلى الفؤاد ، لكن هنا المقام مقام سلب لهذه النعم ، فيسلب الأهم أولاً ، فأتى بالفؤاد ثم السمع ثم الأبصار .

لكن أى شيء أبصروه ؟ وأى شيء سمعوه فى قولهم ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. ۝١٢ ﴾ [السجدة] ؟ أول شيء يبصره الكافر يوم القيامة ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. ۝٣٩ ﴾ [النور] وحده سبحانه ليس معه شريك من الشركاء الذين عبدوهم فى الدنيا ، وليس لهم من دونه سبحانه ولىٌّ ، ولا شفيع ، ولا نصير .

ومعنى ﴿ سَمِعْنَا .. ۝١٢ ﴾ [السجدة] أى : ما أنزلته يا رب على رسولك ، ونشهد أنه الحق وصدَّقنا الرسول فى البلاغ عنك ، وأنه

---

(١) أى : غطاها فأحكم غطاءها فهم لا يفهمون ولا يسمعون . [القاموس القويم ١/١٨٧]
قال أبو إسحاق : معنى ختم وطبع فى اللغة واحد ، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن لا يدخله شيء . [لسان العرب ـ مادة : ختم] .

ليس مُفْترياً ، ولا هو شاعر ، ولا هو ساحر ، ولا هو كاذب[١] .

لكن ، ما فائدة هذا الاعتراف الآن ؟ وبماذا ينفعهم[٢] وهم فى دار الحساب ؟ لا فى دار العمل والتكليف ؟! وما أشبه هذا الاعتراف باعتراف فرعون قبل أنْ يغرق : ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ .. (٩٠)﴾ [يونس] لذلك ردَّ الله عليه : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

فقولهم : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢)﴾ [السجدة] إقرار منهم بأنهم كانوا على خطأ ، وأنهم يرغبون فى الرجوع إلى الصواب ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون] ، وردَّ الله عليه : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

ثم كشف حقيقة أمرهم : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

وهنا يقولون : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة] وهل يكون اليقين فى هذا الموقف ؟ اليقين إنما يكون بالأمر الغيبى ، وأنتم الآن فى اليقين الحسىِّ المشاهَد ، فهو إذن يقين لا يُجدى[٣] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٥٣) : « أى أبصرنا ما كنا نكذِّب ، وسمعنا ما كنا ننكر . وقيل : أبصرنا صدق وعيدك وسمعنا تصديق رسلك » .

(٢) قال قتادة : أبصروا حين لم ينفعهم البصر ، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٤٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٥٤) : « قيل : معنى ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة] أى : قد زالت عنا الشكوك الآن ، وكانوا يسمعون ويبصرون فى الدنيا ، ولكن لم يكونوا يتدبرون ، وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع ، فلما تنبهوا فى الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

هنا قد يسأل سائل : لماذا جعل الله الناسَ : مؤمناً وكافراً ، وطائعاً وعاصياً ؟ لماذا لم يجعلنا جميعاً مهتدين طائعين ؟ أهذا صعب على الله سبحانه ؟ لا ، ليس صعباً على الله تعالى ، بدليل أنه خلق الملائكة طائعين مُنفِّذين لأوامره سبحانه ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

كذلك الأرض والسماء والجبال .. الخ ، كلها تُسبِّح الله وتعبده ﴿ **كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ** .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور]

وقال : ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] ، وبعد ذلك يعطى الله تعالى لبعض خَلْقه معرفة هذا التسبيح ، كما قال فى حق داود عليه السلام : ﴿ **وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ** .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

نعم ، هى تُسبِّح أيضاً مع غير داود ، لكن الميزة أنها تشترك معه فى تسبيح واحد ، كأنهم (كورس) يرددون نشيداً واحداً .

وعرفنا فى قصة الهدهد وسليمان ـ عليه السلام ـ أنه كان يعرف قضية التوحيد على أتمِّ وجه ، كأحسن الناس إيماناً بالله ، وهو الذى قال عن بلقيس ملكة سبأ : ﴿ **وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل]